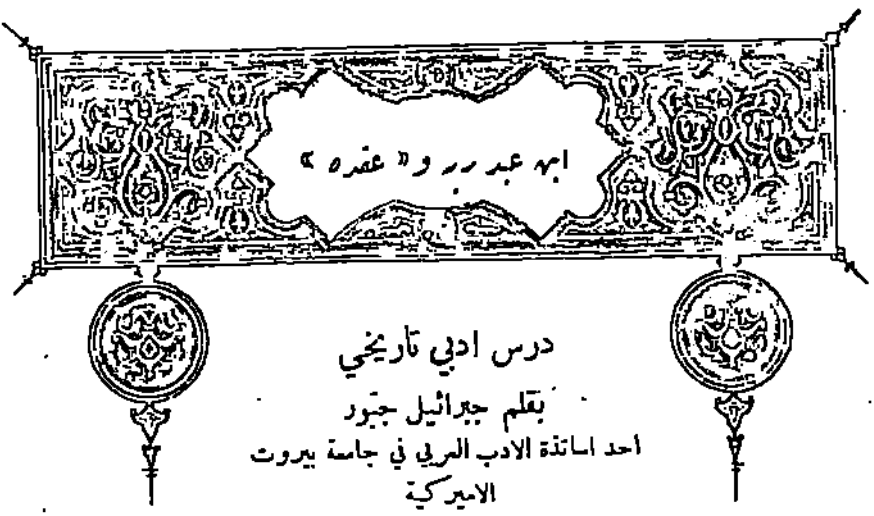

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٨

بعض نواحي خلقه واثرها في العقد (تابع)

ميله للدعابة والفكاهة والنوادر والقصص

وكان في طبعه، فيما يظهر لنا، ميل للدعابة والمزح والفكاهة. وقد أثر هذا الميل فيما نقله في عقده عن اخبار المتقدّمين من ناحية نوعها وطريق سردها، فترى فيه كتاباً خاصاً في الفكاهات والملح فرش اداره بما يأتي: «هي نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور» واستشهد بعد هذا الفرش بالنبي العربي وعلي ورجال الاسلام الاول وغيرهم على صحة ما ذهب اليه، كأن يورد مثلاً «قال النبي: روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة»، او «قال النبي: يدخل عثمان الجنة ضاحكاً لانه كان يضحكني»، او «قال ابن اسحق: وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا»، او «وفي بعض الكتب المترجمة ان يوحنا وشمعون كانا من الحواريّين وكان يوحنا لا يجلس مجلساً الا ضحك واضحك من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلساً الا بكى وابكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا ما اكثر ضحكك كانك قد فرغت من عملك. فقال له يوحنا ما اكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربّك. فاوحى الله الى المسيح ان احبّ السيرتين اليّ سيرة يوحنا.»

ويرى القارئ في هذا الكتاب كثيراً من القصص الشائقة التي يظهر ان ابن

عبد ربه قصد الى الفكاهة في تدوينها ، لا الى التاريخ . من هـذه القصص قصة من العباس بن الاحنف ، واخرى عن المجرّد (وهب الشاعر) ، واخرى عن يوم دارة جلجل ، واخرى عن دعبل وصريع الغواني . وهناك قصص متعـددة قصيرة عن الرشيد وجواريه وشعرائه كابي نوّاس وغيره ، وفيه قصة عن عمر بن ابي ربيعة مع ابي مسهر العذري ، واخرى طويلة عن اسحق الموصلي والمـأمون وكيف تمّ زواج الاخير ببوران . وهناك قصة الناسك الذي كان له سمن في جرّة معلقة واخذ يبني بخياله قصوراً فاثرى وتزوّج وصار ابا ، واخذ يؤدّب ابنه وقال كذا بعصاه ، فكسر الجرّة وتحطّمت الآمال والمنى .

وان في هذا الكتاب لمجموعة من القصص تشبـه من كثير من النواحي القصص المعروفة في كتاب الف ليلة وليلة . بل ان قصة اسحق الموصلي والمأمون قد وردت في كلا المصدرين : العقد ، والف ليلة وليلة . وتتفق اكثر هذه القصص مع قصص الف ليلة وليلة من ناحية بذاءة اللفظ وسفالة المعنى . ولعلّ ابن عبد ربه ، من هذه الناحية ، واحد من قدماء المؤلفين في العربية الذين جمعوا قصصاً من عصور مختلفة ودوّنوها في كتاب واحد .

وقد ذكر ابن عبـد ربه في هـذا الكتاب شيئاً من النوادر لاسيما نوادر اشعب ، وهي قصص صغيرة . وجعـل في الكتاب ايضاً باباً خاصاً عنونـه بالمضحكات اكثرها قد دار على لفظ بذيء او معنى سافل . ومنها ما نستطيع ان نزويه بشيء من التردّد . وغايتنا في روايتها اطلاع القارئ على نوع النكتة في بعض هذه المضحكات :

« (الزبير) قال حدثنا بكار بن رباح قال : كان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب . فشكي الى عامل مكة فنفاه الى عرفات . فبنى بها منزلاً وارسل الى اخوانه فقال : ما منكم ان تعاودوا ما كنتم فيه ؟ قالوا : وابن بك وانت في عرفات ؟ قال : حمار بدوم ، وقد صرتم على الاثر والنزهة . فقطوا فكانوا يركبون اليـه حتى فـدت احداث مكة . فاعادوا شكايته الى والي مكة فارسل اليه فاتي به فقال : يا عدوّ الله ، طردتك فصرت تفسد في المشعر الحرام . قال : يكذبون عليّ ، اصلح الله الامير ! فقالوا : اصلحك الله ! الدليل على صحة ما نقول ان تأمر بجميع حمير مكة ، فترسل بها امناء الى عرفات فيرسلوهـا فان يصدروا الى منزله دون المنازل كعادتها فنحن غير مبطلين . فقال الوالي : ان في هذا لدليـلاً وشاهداً عدلاً . فامر بجمير من حمر مكة التي للكراء فأرسلت فصارت الى منزله كاخا جا عليه

دليلٌ. فاطمه بذلك امناؤه. فقال: ما بعد هذا شيء، جرّدوه. فلما نظر الى السياط قال: لا بدّ اصلحك الله من ضربي؟ قال: نعم، يا عدوّ الله. قال: والله ما في ذلك شيء هو اشدّ عليّ من ان يشمت بنا اهل العراق ويضحكون منا ويقولون اهل مكّة يجيزون شهادة الحمير. (قال) فضحك الوالي وخلّى سبيله.» (١

ولم يقتصر امر الفكاهات والملح على هذا الكتاب الخاصّ، بل قد تعدّاه الى كتاب آخر هو الجمانة الثانية في المتنبّين والمغرورين والبغلاء والطفيليين. وظاهرٌ من موضوع هذا الكتاب ان المسحة التي ستغلب فيه انما هي مسحة المزاح والفكاهة. ولقد فرش ابن عبد ربه لدار هذا الكتاب بقوله:

«فان اخبارهم حدائق مونقة ورياض زاهرة لما فيها من طرفة ونادرة فكاضا انوار مزخرفة او حال منثرة دانية القطوف من جاني ثمرها قريبة المسافة لمن طلبها. فاذا تأملها الناظر واصغى اليها السامع وجدها ملهى للسمع ومرتعاً للنظر وسكناً للروح ولقاحاً للعقل وسميراً في الوحدة وانيساً في الوحشة وصاحباً في السفر وانيساً في الحضر.» (٢

واورد في هذا الكتاب نوادر كثيرة من الخير ان نذكر بعضها ليرى القارئ نوع الفكاهة التي كان يرغب في تدوينها قال:

«ادّعى رجلٌ النبوّة بالبصرة فاتي به سليمان بن عليّ مقيّداً. فقال له: انت نبيّ مرسل؟ قال: اما الساعة فاني مقيّد. قال: ويحك من بشك؟ قال اجذا يخاطب الانبياء، يا ضيف، والله لولا اني مقيّد لامرت جبريل يدمدمها عليكم. قال: فالمقيّد لا تجاب له دعوة؟ قال: نعم! الانبياء خاصة اذا قيّدت لم يرتفع دعاؤها. فضحك سليمان فقال له: انا اطلقك وامر جبريل فان اطاعك امنّا بك وصدقناك. قال: صدق الله فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم. فضحك سليمان، وسأل عنه فشهد عنده انه مجنون فخلّى سبيله.» (٣

وقال:

«اخذ رجل ادّعى النبوّة ايام المهدي فادخل عليه فقال له: انت نبي؟ قال: نعم! قال: والى من بُعثت؟ قال أوَ تركتموني اذهب الى احد؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس. فضحك منه المهدي وخلّى سبيله.» (٤

وهناك قصة لا بأس بذكرها ايضاً على سبيل التمثيل على نوع الفكاهة في هذا الكتاب، وتريدك ان تلاحظ ايضاً ما قد يشتم فيها من الدعوة لحبّ آل عليّ:

«(العتبي) قال: سمعت ابا عبد الرحمن بشراً يقول: كان في زمن المهدي رجل صوفي،

١) ابن عبد ربه ٣: ٤٤٨ ٢) ابن عبد ربه ٣: ٢٠٤
٣) » » ٣: ٢٠٥ ٤) » » ٣: ٢٠٥

وكان عاقلاً عالماً فيجد ليجد السبيل الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين الاثنين والخميس فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة. فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان. فيصعد تلاً وينادي باعلى صوته: ما فعل النبيّون والمرسلون أليسوا في اعلى عليّين؟ فيقولون: نعم. قال: هاتوا ابا بكر الصديق. فأخذ غلام فأجلس بين يديه. فيقول: جزاك الله خيراً، ابا بكر، عن الرعية. فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حلّ وتنازع وقرنت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة. اذهبوا به الى اعلى عليّين. ثم ينادي: هاتوا عمر. فأجلس بين يديه غلام. فقال: جزاك الله خيراً، ابا حفص، عن الاسلام قد فتحت الفتوح ورسّمت الفيء وسلكت سبيل الصالحين وعدلت في الرعية. اذهبوا به الى اعلى عليّين بعذاء ابي بكر. ثم يقول: هاتوا عثمان. فاتي بغلام فاجلس بين يديه. فيقول له: خلطت في تلك السنين، ولكن الله تعالى يقول خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم. ثم يقول اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليّين. ثم يقول: هاتوا علي ابن ابي طالب. فاجلس غلام بين يديه فيقول: جزاك الله عن الامة خيراً، ابا الحسن، فانت الوصي وولي النبي بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء فلم تحمش فيه بناب ولا ظفر. وانت ابو الذرّية المباركة وزوج الزكية الطاهرة. اذهبوا به الى اعلى عليّين الفردوس. ثم يقول: هاتوا معاوية. فأجلس بين يديه صبيّ. فقال له: انت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي اخلفت رجهه العبادة. وانت الذي جعل الخلافة ملكاً واستأثر بالفيء وحكم بالهوى واستبطر بالنعمة. وانت اول من غيّر سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض احكامه وقام بالبغي. اذهبوا به فاوقفوه مع الظالمة. ثم قال: هاتوا يزيد. فاجلس بين يديه غلام. فقال له: يا فوّاد إنت الذي قتلت اهل الحرّة وابحت المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله . . . وتمثلت بشعر الجاهلية

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسيناً وحملت بنات رسول الله . . . سبايا على حقائب الابل. اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار. ولا يزال يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال: هاتوا عمر. فاتي بغلام فاجلس بين يديه. فقال: جزاك الله خيراً عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته وألنت القلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق. اذهبوا به فالحقوه بالصدّيقين. ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى ان بلغ دولة بني العباس فسكت. فقيل له: هذا ابو العباس امير المؤمنين. قال: فبلغ امرنا الى بني هاشم. ارفعوا احسابهم جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.» (١)

ويرى القارئ في كلا الكتابين قصصاً كثيرة في الفكاهة والمزاح كثر فيها

(١) ابن عبد ربه ٣: ٢٠٩

قبيح اللفظ وسافل المعنى . وليس هنا موضع البحث في ما تمثله هـذه القصص من روح مجتمعات القوم في تلك العصور حتى زمن ابن عبد ربه ، وميلهم الى الفكاهات التي كانت تصطبغ بمثل هذه المعاني والالفاظ البذيئة ، ولم تخلُ كتب العقد الاخرى من ملح ونوادر وفكاهات نثرها ابن عبد ربه هنا وهناك ، او تعليقات ظهر فيها ميله للفكاهات والنكتة كتعليقه الذي ذكرنا فيما سبق على شعر ضعيف: واقل ما يقال في هذا الشعر ان يضرب صاحبه كذا وراويه كذا الخ . ولعلنا سنعرض لشيء من ميل ابن عبد ربه هذا ، عنـد بحثنا عن شعره وفنّ الهجو فيه .

قيمته الادبية

لا جدال في ان اقوى ظاهرة تبدو في العقد هي مسحته الادبيّـة . وان القارئ يشعر بهذه المسحة في كل كتب العقد . ولعلّ ابن عبد ربه قد قصد الى هذا الامر اذ يظهر من قوله في مقدّمة عقده انه اعتنى في ان يكون كتابه مجموعة من متخيّر جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان وقـد رأيناه لا يعنى كثيرًا بالاسناد لان اخباره فيما يقول « اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها . » ورأينا كذلك انه عمد الى اختصار أخباره « طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهرباً من الثقيل والتطويل » ، وانه يفتخر في انه احسن الاختصار واجاد الاختيار: « وقصدت من جملة الاخبار وفنون الآثار الى اشرفها جوهرًا واظهرها رونقًا والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طلاوة وحلاوة آخذًا بقول الله تبارك وتعالى : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقد اشرنا في بحثنا عن قيمة العقد التاريخية ان غاية صاحبه قبل كل شيء ادبية . ولعله لم يجمع هذه الفنون المختلفة في عقـده — حتى كاد يكون دائرة معارف مختصرة لعلوم عصره — الا لانه كان يرى ذلك من شروط الادب ، قال :

« فان كان لا بد لك من طلب ادوات الكتابة فتصفّح من رسائل المتقدمين مـا يعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه ومن نوادر الكلام مـا تستعين بـه ومن الاشعار والاخبار والسير والاسماء ما يتسع به منطقك ويطول بـه قلمك وانظر في كتب المقـامات

والمثلب ومجاوبة العرب في حروبهم ومعالي العجم (كذا) وحدود المنطق واشكال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في حروبهم بعد ان تكون متوسطاً علم النحو والغريب والوثائق والسور وكتب السجلات والامانات » (١

وروى في عقده قال :

« قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة من اراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن اراد ان يكون اديباً فليتفنّن في العلوم » (٢

وقد وفق ابن عبد ربه في تحقيق غايته ، وسبق الكثيرين ممن بحثوا قبله في هذه الناحية نفسها ، وامتاز على بعضهم بالوضوح وسهولة المأخذ ، وعلى غيرهم بالترتيب والتنسيق ، وعلى عمومهم في ان كتابه كان جامعاً لاكثر علوم عصره ان لم يكن كلها . وهذا يظهر لاول وهلة لمن يطالع جدول الكتب التي ضمّها العقد . ناهيك في انّ الصبغة الغالبة في اكثر هذه الكتب انما هي صبغة الادب كما كانوا يفهمونه يومذاك ، فكتابه في الاجواد ، وكتابه في الوفود ، وكتابه في مخاطبة الملوك ، وكتابه في العلم والادب ، وكتابه في الامثال ، وكتبه الاخرى في المواعظ والزهد ، والتعازي والمراثي ، وكلام الاعراب ، والخطب ، وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، والفكاهات والملح ، كل هذه غلب فيها البحث في آداب العرب عموماً واشعارهم بنوع خاصّ ، حتى كتبه التي تبحث في التاريخ والاجتماع والموسيقى لا تخلو من فوائد ادبية كثيرة .

وفي العقد ما لا يقلّ عن عشرة آلاف بيت من الشعر لاكثر من مئتي شاعر من العصر الجاهلي والاموي والعباسي . وربما يصعب ان تذكر شاعراً معروفاً لا ترى عنه خبراً او نتفاً من شعره استشهد بها ابن عبد ربه لمناسبة ما . فالنابغة ، وامرؤ القيس ، وطرفة ، والاعشى ، وحسان ، ولبيد ، وزهير ، وعنترة ، والمهلهل ، وعديّ ، وابوذؤيب ، وغيرهم من العصر الجاهلي ؛ وجرير ، والاخطل ، والفرزدق ، وابن ابي ربيعة ، وجميل ، وكثيّر ، وذو الرمّة ، ونصيب ، والمجنون ، والاحوص ، والعرجي ، وغيرهم من عصر الراشدين وبني امية ؛ وبشار ، ومروان بن ابي

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٠ ، ولاحظ ورود ذكر « المقامات » في هذه العبارة بصورة تدلّ على انها كانت معروفة قبل بديع الزمان ، وقبل ابن دريد .

٢) ابن عبد ربه ١ : ١٦٦

حفصة ، وابو نوّاس ، والبحتري ، وابو تمام ، وابو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهم من العصر العباسي ؛ كل هؤلاء قد ذكر عنهم اخبارًا كثيرة ونوادر ، وروى لهم شعرًا كثيرًا . ناميك بما ذكره لغير هؤلاء من المشهورين وغير المشهورين وبنوع خاص لابن عبد ربه نفسه ، فان في العقد اكبر مجموعة شعرية من شعر ابن عبد ربه الذي لم يفقد مع ما فقد في ديوانه. هذا من حيث رواية الشعر واخبار الشعراء . اما من حيث وصف المجالس الادبية والخطب والرسائل فحدّث ولا حرج . ففي العقد كتاب خاصّ ، جعله الواسطة بين جواهر العقد ، ذكر فيه عيون الخطب ، وهو بحقّ من خير المصادر لمراجعة بعض خطب المتقدّمين . زد على ذلك خطب الوفود واقوالهم ، والرسائل المتبادلة بين ناس وناس ، وبنوع خاصّ هذه الرسائل التي تبودلت بين علي ومعاوية والتي ان صحّت نسبتها اليها لتدلّ على ان فنّ انشاء الرسائل الطويلة قد تقدّم عصر عبد الحميد الكاتب ومعلّمه . ففي الرسائل ترسّل واسهاب ، وكنت اودّ لو يتسع المجال لذكر بعضها ، فلتراجع في موضعها[1] .

ومن الخير ان نذكر هنا ايضاً ما في العقد من قصص ونوادر وحكايات اشرنا الى بعضها في بحثنا عن شيء من نواحي خلقه ، جمعها ابن عبد ربه من مصادر شتى ، فيما يظهر ، وجعل اكثرها في كتابين واحد للمتنبّين والمغرورين والبخلاء والطفيليين ، وآخر للفكاهات والملح . ونرى ان هذين الكتابين من اقدم المجموعات العربية للقصص والنوادر .

كذلك للعقد قيمة ادبية من حيث النقد الادبي . ففيه فصول في النقد نقل بعضها ابن عبد ربه عن الشيباني وغيره من الادباء القدماء يجدر بعلماء النقد الوقوف عليها ، منها مثلاً ما يجب ان يأخذ الكاتب به نفسه في صناعة الكتابة :

« فتخيّر من الالفاظ ارجحها لفظًا واجزلها واشرفها جوهرًا واكرمها حسبًا واليفها في مكانها واشكلها في موضعها . فان حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها اذا سنحت . فانه ربما مرّ بك موضع يكون

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤

مخرج الكلام اذا كنت : انا فاعل ، احسن من ان تكتب : انا افعل ، وموضع آخر يكون فيه استفعلت احلى من فعلت . فادر الكلام على امكانه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها اليه فانزعها الى المكان الذي اوردتها عليه واوقعها فيه . ولاتجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه . فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصاحبها انما هو كترقيع الثوب الذي لم تشاجه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه . . . كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشدّ اتصالاً بالقلوب واخفّ على الافواه لاسيما ان كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف ومعبراً بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعليق باستهلاكه » (١

ومنها :

« وقد رأيتهم شبّهوا المعنى المعني بالروح المعنى واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقاً وتضاءل المعنى الحسن تحت المعنى (كذا) القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة . وانما يدل على المعنى اربعة اصناف : لفظ واشارة وعقد وخط . » (٢

وقد نرى في العقد نوادر واخباراً عن الرواة الذين اخذ عنهم كثيراً من اخبار العرب وشعرائها يندر الوقوع عليها في كثير من كتب الادب المختلفة . وقد عني صاحب العقد في كثير من الامور التي عُني بها بعض هؤلاء الرواة . فاذا بلغه مثلاً ان الاصمعي روى : « لم اجد في شعر شاعر بيتاً اوله مَثل وآخره مثل الا ثلاثة ابيات » — احدهما للحطيئة وآخر لامرئ القيس — يذكر الرواية في عقده والشعر ثم يعلّق على الخبر بقوله : « ومثل هذا كثير في القديم والحديث ، ولا ادري كيف اغفل القديم منه الاصمعي فنحه قول طرفة . . . ومن ذلك قول الآخر . . . الخ » (٣

وفي العقد كتاب هو الجوهرة في الامثال (٤ فيه مجموعة كبيرة لامثال العرب ، قد رتبت وصنفت وبوّبت حسب اقسامها الرئيسية . فترى في اول الكتاب هذا : امثال النبي العربي ، يليها امثال رويتها العلماء ، ثم امثال اكثم بن صيفي وبزرجمهر

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٦ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٧
٣) » » ١ : ٢٥٦ ٤) » » ١ : ٢٢٧

الفارسي ، ثم « امثال العرب » عامة . وترى في باب الامثال التي رتبها العلماء امثالًا تحت العناوين التالية « مَن ضُرب به المثل من الناس » ، « من يُضرب به المثل من النساء » ، « ما تمثلوا به من البهائم » ، « ما ضرب به المثل من غير الحيوان » . وتجد تحت العنوان الاول مثلًا « أسخى من حاتم ، واشجع من ربيعة بن مخلم ، وانكى من قيس بن زهير ، واعزّ من كليب بن وائل الخ »[1] . ومن الخير ان ندوّن هنا ان القسم الاخير من جوهرته هذه ، اي باب « ومن امثال العرب » ، وهو القسم الاكبر في الجوهرة ، قد اخذه فيما يقول عن رواية ابي عبيدة . واذا رجعنا الى الفهرست[2] نرى ان بين الكتب التي وضعها ابو عبيدة كتاباً اسمه « كتاب الامثال » . فلا يبعد ان يكون هو الكتاب الذي رجع اليه ابن عبد ربه . وقد ذكر ابن عبد ربه انه جرّد هذه الامثال من الآداب التي ادخل فيها ابو عبيدة ، وضمّ الى امثلة العرب القديمة ما جرى على السنة العامة من الامثال المستعملة ، وفتر من ذلك ما احتاج الى التفسير[3] . ومن الخير ان نذكر ايضاً ان الامثال هذه مصنفة بحسب مواضيعها وهي تقع في نحو مئتي موضوع . فترى مثلًا في موضوع « القصد في المدح » : « من حفنا او رفنا فليقتصد » ، « لا تعرف بما لا تعرف » ، « شاكه ابا يسار من دون ذا ينفق الحمار » . و في موضوع « حمية القريب وان كان مبغضاً » : « آكل لحمي ولا ادعه يؤكل » ، « لا تعدم من ابن عمك نصرًا » ، « كفّ منك وان كانت شلّاء » الخ . ويظهر لنا ان هذا التبويب مأخوذ عن ابي عبيدة ، اذ ترى من سياق ذكر ابن عبد ربه لهذه الامثال ما يدلّ على ذلك ، قال : « قال ابو عبيدة من امثالهم في الحلم اذ انزل الشرّ فاقعد . . . ومنه قول الآخر : الحليم مطيّة الجهول . وقولهم : لا ينتصف حليم من جاهل ، وقولهم : أخر الشر فان شئت تعجلته . وقولهم الخ . »[4]

وفي العقد كتاب خاص عن اعاريض الشعر وعلل القوافي ، فيه ارجوزة من نظم ابن عبد ربه لا بأس بها من حيث نظم قواعد العروض والمامه بها . وهي

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٢٠ ٢) ابن النديم ١ : ٥٤—٥٥
٣) » » » ١ : ٢٢٣ ٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٤١

تمهيد من يرغب في درس العروض. وقد اتبع ابن عبد ربه الارجوزة بامثلة على ٦٣ ضرباً من ضروب العروض من شعره. وجعل المقطعات، فيما يقول، رقيقة غزلة ليسهل حفظها على السنة الرواة. وضمن في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها وداخلاً في معناها من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها.[1]

وفيه ارجوزة عن مآثر الخليفة الناصر في حروبه أشرنا اليها عند بحثنا عن قيمة العقد التاريخية وذكرنا انها تكاد تكون من اقدم الشعر القصصي الذي يدور على الملاحم ...

ولم يكن ابن عبد ربه اول من نظم الشعر العربي في بعض وقائع التاريخ فقد تقدمه شعراء المشرق في جاهليتهم واسلامهم ولكنهم لم يقصروا قصائدهم على وقائع التاريخ، بل ذكروا فيها فخرهم وحبهم وغير ذاك. كذلك لم يطيلوا في الشعر الذي ذكرت فيه وقائع تاريخية مثل ما اطال ابن عبد ربه؛ لا نستثني الا ابن المعتز، فقد سبق ابن عبد ربه بالزمن وشاركه بطول القصيدة واقتصارها على موضوع واحد عام. ولعل ابن عبد ربه قد اخذ شيئاً عن ارجوزة ابن المعتز، لاسيما اذا لاحظنا ان اول ابيات ابن عبد ربه تكاد تشبه من حيث المعنى اول ارجوزة ابن المعتز[2]. ومن يقرأ الارجوزتين يشعر ان ابن المعتز صاحب القسط الاوفر من الفضل والتقدم في هذا المضمار.

كذلك يصدق على قيمته الادبية ما ذكرنا في قيمته التاريخية من امر

---

١) ابن عبد ربه ٣: ١٨٨

٢) راجع ديوان ابن المعتز (طبع في مطبعة المحروسة بمصر ١٨٩١) — ج ١: ١٢٦، وقابل بين ارجوزته هذه في المقتضد وارجوزة ابن عبد ربه في الجزء ٢ من عقده ص ٢٣٦ ترَ وجه الشبه بين الارجوزتين من حيث اللفظ في

الحمد لله على آلائه احمده، والحمد من نعمائه

يقابلها عند ابن عبد ربه:

فالحمد لله على نعمائه حمداً جزيلاً وعلى آلائه

ومن حيث المعنى في اتفاقهما بذكر الفوضى التي سبقت حكم كلّ من الخليفتين: المقتضد العباسي، والناصر الاندلسي.

الرجوع الى العقد عند نشر الكتب التي اخذ عنها صاحبه ، والكتب التي استقت من المصادر التي استقى منها ابن عبد ربه نفسه ، وضبط الاشعار ، والتعرف على مختلف الروايات التي تروى عليها .

ولا بد لي من ذكر فضل صاحبه في التبويب والتصنيف ، واجتهاده في ان تقع اكثر موادّ عقده تحت المواضيع التي تلائمها بحيث امتاز على الكثيرين من الذين سبقوه الى هذا الامر وطرقوه قبله .

وهناك في العقد ما له قيمة ادبية وتاريخية بالوقت نفسه ، ألا وهو بحث ابن عبد ربه او جمعه لبعض الامور في اصطلاحات الكتاب ، واصول المخابرات الرسمية ، وتضمين الاسرار في الكتب . فكأن عمله من هذه الناحية نواة صغيرة لما كتبه في صبح الاعشى ابو العباس القلقشندي . ولا بأس في ان نذكر لمن يهمهم الاطلاع على هذا الامر بعض الامثلة : قال في باب «ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها» :

«قال ابراهيم بن محمد الشيباني اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والادباء والشعراء واوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلًّا على قدر ابهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وانتباهه واجعل طبقات الكلام على ثمان (كذا) اقسام منها الطبقات الطيّبة اربع ، والطبقات الاخر وهي دونها اربع لكل طبقة منها درجة ولكل قسة لا ينبغي للكاتب البليغ ان يقصر باهلها عنها ويقلب معناها الى غيرها . فالحد الاول الطبقات العليا وغايتها القصوى الملائكة . . . والطبقة الثانية لوزرائها وكتابها . . . والطبقة الثالثة امراء ثغورهم وقواد جنودهم . . . والرابعة القضاة . . . واما الطبقات الاربع الاخر . . . ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك ان ترعاها في مراسلتك اياهم في كتبك فتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه فانك متى اهملت ذلك واضعته لم آمن عليك ان تعدل بهم عن طريقهم وتسلك بهم غير مسلكهم . . . فان الباب المعنى وان صح وصرف لفظاً مستخلفاً على قدر المكتوب اليه لم تجرِ به عاداتهم فحجبين للمعنى واخلال بقدره وظلم بحق المكتوب اليه ونقص ما يجب له . كما ان في اتباع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت بهم سننهم قطعاً لعذرهم وخروجاً من حقوقهم وبلوغاً الى غاية مرادهم واستظاظاً لحجة ادبهم . فان الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منها في كتب السادات والملوك والامراء على اتفاق المعاني مثل ابقاك الله طويلًا وعمرك ملياً وان كنا نعلم انه لا فرق بين قولهم اطال الله بقاك وبين قولهم ابقاك الله طويلًا ولكنهم جعلوا هذا ارجح وزناً وانبه قدراً في المخاطبة كما انهم جعلوا اكرمك الله وابقاك احسن منزلًا في كتب الفضلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال . . . وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله

واتع لك الا في الابن والخادم المنقطع اليك واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه. » (١

وذكر ايضاً نماذج من استهلال الكتب التي تكتب الى خليفة ، او الى ولي عهد ، او الى والي شرطة ، او الى قاض الخ. منها: (صدور الى خليفة) : « وفق الله امير المؤمنين بالظفر فيما قلده وآيده واصلح به وعلى يديه . . . » ومنها: (صدور الى ولي عهد): « متع الله امير المؤمنين بطول مدة الامير واجرى على يديه فعل الجميل وآنس بولايته المؤمنين » . . . ومنها : (صدور الى والي شرطة): « انصف الله بك المظلوم واغاث بك الملهوف وأيدك بالثبت ووفقك للصواب . . . »[٢] وقد ذكر في تضمين الاسرار في الكتب امورًا اوردها كلها القلقشندي[٣].

قيمة العقد من حيث علوم الدين وشرائعه

لقد كان ابن عبد ربه فقيهاً ، كما علمنا ، فلا غرو اذا ظهرت آثار هذه الثقافة الفقهية في عقده . ففيه اخبار كثيرة عن الائمة المختلفين الذين تقدموه وشيء كثير من اقوالهم واحكامهم وفتاويهم في بعض المسائل ، واختلافهم في بعض امور الدين . وترى مثلاً فوائد كثيرة في بحثه عن الخمر وآراء الائمة في ذلك واختلافهم في حدها ، وفيما اذا كانت محرّمة العين كما حرّمت عين الخنزير ، او حرّمت لعرض دخل لها ، فاذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً . واحتجاج المحرّمين لقليل النبيذ وكثيره ، واحتجاج المحلّين للنبيذ كله . وترى ايضاً في الباب نفسه تعليقات لابن عبد ربه ربما اقتبسها عن ائمة سبقوه منها:

« واما منافعها (يعني الخمر) التي ذكرها الله تعالى في قوله : « يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » ، فانها كثيرة لا تحصى فمنها انها تدرّ الدم تقوي المعدة وتصفي اللون وتبعث النشاط وتثقف اللسان ما اخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار . فاذا جاوز ذلك عاد نفعها ضررًا . » (٤

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٢

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٤

٣) قابل ابن عبد ربه ٢ : ٢١٨ ، بالقلقشندي ٩ : ٢٢٩—٢٣٠

٤) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٢

ويحسّ القارئ في مطالعته هذا الباب الذي يدور على الاشربة تساهل ابن عبد ربه — وهو الفقيه — في امر شرب النبيذ ودعوته من ناحية خفية الى تناول شيء منه:

« قالوا: ولولا ان الله تعالى حرّم الخمر في كتابه لكانت سيدة الاشربة . وما ظنك بشراب الشربة الثانية منه اطيب من الاولى والثالثة اطيب من الثانية حتى يؤديك الى ارفق الاشياء وهو النوم . وكل شراب سواها فالشربة الاولى اطيب من الثانية والثانية اطيب من الثالثة حتى تمله وتكرهه» . . . — وهو سقى قوم اعرابياً كوزاً ثم قالوا: كيف تجدك ؟ قال: اجدني اسرّ واجدكم تحسنون اليّ » — وقالوا يا حرّم الله شيئاً الا عوضنا ما هو خير منه او مثله وقد جعل الله النبيذ عوضاً من الخمر تأخذ منه ما يطيب النفس ويصفي اللون ويعضم الطعام » (١ — وقالوا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كل خمر مسكر وما اسكر الفرق منه فملء الكف حرام هذا كله منسوخ نسخه شربه للصلب يوم حجة الوداع » (٢ — و«دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يشربون ويوقدون في الاخصاص . فقال: خيتكم عن معاقرة الشراب فعاقرتم وعن الايقاد في الاخصاص فاوقدتم . وهمّ بتأديبهم . فقالوا: يا امير المؤمنين نشدك الله عن التجسّس فتجسست ونهاك عن الدخول بغير اذن فدخلت فقال: هاتان بهاتين . وانصرف وهو يقول: كل الناس افقه منك يا عمر ؛ وانما نهاهم عن المعاقرة وادمان الشراب حتى يسكروا ولم ينههم عن الشراب . . . ولو كان عنده ما شربوا حراماً لحدّهم .» (٣ — « واحتجوا من جهة النظر ان الاشياء كلها حلال الا ما حرّم الله قالوا: فلا تزيل نفس الحلال بالاختلاف ولو كان المحللون فرقة من الناس فكيف وهم اكثر الفرق ؟ واهل الكوفة اجمعون على التحليل لا يختلفون فيه وتلوا قول الله عزّ وجل: قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل: الله اذن لكم ام على الله تفترون .» (٤

ويرى القارئ ايضاً فوائد كثيرة في بحث ابن عبد ربه عن « الالحان » ، واختلاف الائمة والفقهاء في امرها ، وآراء المتقدمين من رجال الاسلام الاول فيها . ولا يفوت ابن عبد ربه ايضاً اظهار ميله الى السماع ، وافتاؤه كفقيه بانه حلال .

ويتضمن العقد عدداً ليس بقليل من الاحاديث النبوية يجدر بعلماء الحديث مراجعتها ومقابلتها مع احاديث النبي العربي في الكتب المختلفة . وفيه ايضاً طائفة كبيرة من اخبار قدماء الائمة واصحاب المذاهب واقوالهم وآرائهم وتفسير

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٢ ٢) » » ٣ : ٤١٥
٣) » » ٣ : ٤١٦ ٤) » » ٣ : ٤١٦

بعضهم لبعض آيات القرآن . ومن يقرأ كتاب الياقوتة في العلم والادب يدرك ان قسماً كبيراً منه يدور على اقوال الائمة المتقدمين واصحاب المذاهب كالحسن البصري، وعلي ، وعبدالله بن مسعود ، والاوزاعي، والزهري ، والشيباني ، وسفيان الثوري ، وسعيد بن المسيب ، ومالك بن أنس ، وغيرهم ، اقوال وآراء لا بدّ لطالب الفقه الاسلامي من الوقوف عليها . وفي هذا الكتاب ايضاً باب في الغلوّ في الدين ، وبحث في القول في القدر ، وردّ المأمون على الملحدين واهل الاهواء . ثم القول في اصحاب الاهواء من رافضة وغيرهم . في كلها فوائد لها قيمتها . كذلك قد نثر ابن عبد ربه فوائد اخرى تتعلق في الموضوع نفسه في كتاب الجوهرة في الامثال ، وكتاب المواعظ والزهد ، وكتاب فضائل الشعر ، وكتاب الوفود وغيرها .

زد على ذلك ان العقد لا يخلو من بعض روايات واقوال لها صلة بامور الدين والفقه اخذها ابن عبد ربه عن اساتذته في المغرب : الخُشَني ، وابن وضاح، وبقي بن مخلد ، الذين سبق لنا ان ذكرنا شيئاً عن مكانتهم .

وقد كان ابن عبد ربه مالكي المذهب ، شأن اكثر مسلمي الاندلس في ذلك الزمن ، وقد ذكر انتسابه الى هذا المذهب عند ذكر اسمه في اول صفحة بالعقد قبل الفهرس والمقدمة .

ورب من الخير ان نشير هنا الى ما ذكرناه عن اعتدال ابن عبد ربه ليس فيما يتعلق بامور الدنيا فحسب ، بل فيما له مساس بالدين ، فلتراجع هناك .

(له صلة)